الفن الجميل
في القرآن الكريم
للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

يخطئ من يظن أن دين الله تعالى زهد محض ، وتقشف بحت ، ورهبانية لا تعنى بزينة الدنيا وزخرفها ، وتصوف مظاهره ليس المرقعات ، فلو صح ذلك لم يكن دين الله عاماً صالحاً لكل الناس ، وملائماً لكل زمان ومكان ، بل يكون خاصاً بطائفة من البشر ، تؤثر التقشف على التنعم ، والزهد في زينة الدنيا على التمتع بها . وليس كذلك دين الله تعالى ، لأنه دين عام صالح لكل الناس ، وملائم لكل زمان ومكان ، ولهذا جعل الزهد في الدنيا وزينتها مباحاً لمن يريده ، وأحل التمتع بتلك الزينة لمن يريدها ، حتى لا يكون فيه حرج على أحد في هذه الحياة ، ولا تضيق به طائفة من طوائف البشر ، وتسير الحياة في نظامها الصالح بدون إفراط أو تفريط

وعلى هذا الأساس جاء القرآن الكريم بالفن الجميل من البناء والنحت والتصوير والغناء وغير ذلك ، وذكر الله لنا فيه عهد ازدهار تلك الفنون في بعض ما أنزل من الشرائع ، وأقام من الملك ، وحكى ذلك في أسلوب يفيض مدحاً وإطراء لما ظهر من آثار تلك الفنون في هذه العهود ، ويدل على روعة تلك الآثار وجمالها ، وأنها كانت آية في الإبداع ، ومعجزة من معجزات الفن الجميل ، ومفخرة من المفاخر الباقية الذكر

وقد ازدهر من ذلك في عهد سليمان عليه السلام فنون كثيرة ، فبلغت فيه فنون البناء والنحت والتصوير أوج عظمتها ، ووصلت إلى أرقى ما وصلت إليه عند الأمم المتحضرة في العصور القديمة ، وقد ظهرت آثارها الرائعة فيما بنى سليمان من المساجد والقصور ، وفيما شيد من المدن والحصون ، وإلى هذا يشير الله تعالى في قوله : (ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر ، وأسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب ، وقدور راسيات ، اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور) . ١٢ ، ١٣ من سورة سبأ

وكان بيت المقدس أعظم ما تجلت فيه تلك الآثار ، وتباري في زينته أرباب الفنون الجميلة ؛ وكان داود عليه السلام قد ابتدأ بناء ذلك البيت لعبادة الله تعالى ، ثم مات قبل أن يتم بناءه ، فلما ملك سليمان عليه السلام من بعده مضى في إتمام ذلك البيت العظيم ، وعمل على أن يكون في عصره آية الآيات ، ومعجزة فنون البناء والنحت والتصوير ؛ فجمع له أرباب تلك الفنون من سائر الجهات ، وخص كل طائفة منهم بالعمل الذي تعرفه ، وأحضر الرخام والبلور من أماكنهما ، وأمر ببناء المدينة بالرخام والصفائح لتتلاءم مع ذلك البيت الذي يريد تشييده ، ويكون منها واسطة العقد وقلادة الجيد ، وقد جعلها اثني عشر ربضاً ، وأنزل في كل ربض سبطاً من أسباط بني إسرائيل ، ثم شرع في تشييد ذلك البيت العظيم وأحضر الذهب والفضة والجواهر واليواقيت والدر الصافي والمسك والعنبر والطيب ، وأتى من ذلك بشيء كثير لا يحصيه إلا الله تعالى ، أتته به أساطيله التي كانت تمخر عباب البحار ، وتتنقل فيها شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً ، ثم أحضر المهرة من الصناع وأمرهم أن ينحتوا تلك الأحجار ويجعلوها ألواحاً ، وأن يصلحوا الجواهر ويثقبوا اليواقيت واللآلئ ، فبنى ذلك البيت بالرخام الأبيض والأخضر والأصفر ، وعمده بأساطين البلور الصافي ، وسقفه بأنواع الجواهر الثمينة ، وفصص سقوفه وحيطانه باللآلئ واليواقيت وسائر الجواهر ، وبسط أرضه بألواح الفيروزج ، فلم يكن على وجه الأرض بيت أبهى ولا أنور من ذلك البيت ، حتى كان يضيء في الظلمة كالقمر ليلة البدر

وقد زاد في زينة ذلك البيت ما نقش فيه من الصور الجميلة ، وما أقيم فيه من التماثيل البديعة ، وكان بعضها مصنوعاً من النحاس وبعضها مصنوعاً من الرخام وبعضها مصنوعاً من الزجاج ، وكان منها ما يمثل صور الملائكة ومنها ما يمثل صور الأنبياء ، ومنها ما يمثل صور الصالحين ، ومنها ما يمثل صور السباع والطيور وغيرها . وكان من معجزات تلك التماثيل تمثالا أسدين كانا

موضوعين تحت كرسي سليمان عليه السلام ، وتمثالا نسرين كانا موضوعين فوقه ، فإذا أراد أن يصعد بسط له الأسدان ذراعيهما ، وإذا جلس على كرسيه أظله النسران بأجنحتهما

وإن ننس لا ننس حديث الصرح الذي شيده سليمان لبلقيس ملكة اليمن ، وأشار الله تعالى إلى عجيب شأنه في قوله (قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها ، قال إنه صرح ممرد من قوارير ، قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) — ٤٤ — من سورة النمل

فهذا الصرح كان آية من آيات الفن الجميل ، وهو يدل أكبر دلالة على عظم ازدهاره في ذلك العهد ، وكان سليمان قد شيد ذلك الصرح لبلقيس ليريها عظمة ملكه ، ويطلعها على براعة أرباب الفنون في دولته ، فأقامه من الزجاج الأبيض كالماء ، وأجرى الماء تحته ، وألقى فيه السمك والضفادع وغيرهما من دواب البحر ، ثم وضع سريره في صدر المجلس وجلس عليه ، فلما أقبلت بلقيس قال لها سليمان ادخلي الصرح ، فحسبته لجة أي ماء عظيما ، وكشفت عن ساقيها لتخوضه إلى سليمان في صدر المجلس ، فقال لها إنه صرح ممرد من قوارير ، فحينئذ سترت ساقيها ، وعجبت من ذلك غاية العجب ، وعلمت أن ملك سليمان من الله تعالى ، فأسلمت لله رب العالمين

وكذلك ورد فن الغناء في القرآن الكريم منسوباً إلى داود عليه السلام ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : (ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد) ١٠ من سورة سبأ ، ولهذا يقال — نغمة داود — مثلاً في طيب الصوت ، وكان عليه السلام إذا قام في محرابه يقرأ الزبور عكفت عليه الوحش والطير تصغي إليه ، ويقال أيضاً — مزامير داود — لأنه فيا قيل كان له مزامير يزمر بها إذا قرأ الزبور ، فكان إذا اجتمع عليه الإنس والجن والوحش والطير أبكى من حوله . وقال المبرد : (مزامير آل داود كأنها ألحانهم وأغانيهم) ، وقال غيره : (إن طيب صوته ونغمة نغمته شبها بالمزامير ولا مزامير ولا معازف هناك)

وكان عثمان بن عفان أول من عني بتلك الفنون في الإسلام ، ولهذا أخذ عليه أعداؤه أنه بدل الإمارة على السلمين من زي النسك إلى زينة الملك . وقد نقل ذلك أبو نصر العتبي في كتابه (اليميني عن رسالة البستي في الترجيح بين الصحابة) ، وهذا شيء نراه مفخرة لعثمان رضي الله عنه — وإن رآه أولئك المتنطعون في الدين منقصة له — وقد أخذ عثمان يهتم بتزيين المملكة الإسلامية بعد أن استقر أمرها ، وتغلبت على دولتي الفرس والروم ؛ فلم يعد من اللائق أن تبقى على مظاهر البداوة ، وقد دان لها من دان من أهل الحضارة

وكان مسجد المدينة أول ما عمد إلى تشييده ، فهدمه وبناه بالجص والحجارة ، وأحضر له مهرة البنائين من المملكة الإسلامية الواسعة . ثم أتى الوليد بن عبد الملك فأرسل إلى عامله على المدينة عمر بن عبد العزيز ، فزاد في المسجد شرقاً وغرباً وجنوباً ، وبنى له أربع مآذن ، وفرش أرضه بالرخام ، ووشى جدرانه بالفسيفساء ، وكسا سقفه بالذهب ، وجعل أساطينه من المرمر

فيا رب هذا دينك جميل كل الجمال ، وليس فيه شيء من ذلك الحرج الذي أفسد أذواقنا ، وأغلظ طباعنا ، وعكس موازين الحسن والقبح بيننا ، حتى صرنا نرى الحسن قبيحاً ، والقبيح حسناً . ولا شك أن الفنون الجميلة هي التي تهذب الوجدان ، وترقق العاطفة ، فلا يسع أي دين أن ينكر فضلها ، أو ينقص من شأنها . وقد ذكرنا من أمرها في القرآن ما فيه الكفاية لبيان شأنها فيه

عبد المتعال الصعيدي

الافصاح

المعجم العربي الفذ ، وهو خلاصة وافية للمخصص وغيره من المعجمات ، رتب الألفاظ العربية على حسب معانيها ، ويسعفك باللفظ للمعنى المراد ، يعين العلماء على وضع المصطلحات العربية في العلوم المختلفة ، ولا يستغني عنه مترجم ولا أديب ، ٨٠٠ صفحة تقريباً ، طبع دار الكتب ، أشرفت طبعته على النفاد ، ثمنه ٢٥ قرشاً يطلب من مجلة الرسالة ومن المكتبات الكبيرة ومن مؤلفيه :

حسين يوسف موسى — المدرس بالمدرسة السعيدية الثانوية بالجيزة

عبد الفتاح الصعيدي — رئيس التحرير بمجمع فؤاد الأول للغة العربية